فى سبيل الطفولة

أثر الأم فى الطفل

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوى بك

مستشار الملكى ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

ليس لأى مصلح فى أية بيئة أن يعدو الاتجاه فى سبيل الطفولة أول ما يتجه ، فالطفل عدة المستقبل ومعقد الأمل فى الخلاص من مساوئ الحاضر . و إذا جاز لنا أن نيأس من يومنا الراهن لما يعمرنا من آفات متأصلة وشرور متغلغلة لم يجز لنا أن نيأس من غدنا المرتقب وللاطمئنان لهذا الأمل يجب علينا أن نعد طفولة صالحة يترعرع نباتها فى تربة صالحة فيخرج لنا رجالا ونساء ينهضون بأعباء الحياة، لا الحياة كائنة ما كانت كالسائمات . ولكن الحياة كريمة عزيزة تكافئ ما سلف لأجدادنا من مجد فى الحضارة تليد وتواجه ما نرجوه فى مستقبلنا من أمل فى النهوض وطيد . فلو قصرنا فى تكوين الطفل تكوينا جثمانيا وعقليا وروحيا أخرجنا للوجود جيلا لا أقول فى مرتبة الأنعام ، إذ أنه لا يحقق نفعا ماديا مثلها . ولكنه جيل أهون منها شأنا وأضل سبيلا .

وكيف يتهيأ لى أن أتحدث فى نشأة الطفل دون أن أتخذ الأمومة محورا لكل ما أقوله فبغير الأم وحسن إعدادها لا ترجى للأمة طفولة سليمة فى جسمها أو عقلها أو روحها .

ولما كان المستقبل رهنا بالطفولة السليمة فانه إذا لم تعد الأم إعدادا صالحا فلا أمل فى جيل جديد ولا رجاء فى مستقبل منشود . فالأم أساس الاصلاح من أى نوع وفى أية ناحية وهى التى يجتمع فيها عاملان : عامل التعمير إن صلحت وعامل التدمير إن فسدت . فإن شئنا صلاحا بدأنا بها قبل كل شىء . و إذا لم نخصها بالرعاية كان خيرا لنا أن ننفض أيدينا من الإصلاح جملة وتفصيلا .

ولقد كان رأيى فى الإصلاح دائما أن نبدأ بإعداد الأم أى الفتاة . فالثقافة والصحة ورفع مستوى الخلق وتحقيق التوازن الاقتصادى وتقوية روح الادخار وحسن تدبير المعيشة كل ذلك لا يقوم له كيان إلا إذا أسهمت فيه الأم بالنصيب الأوفر، فهى العنصر الأهم فى تكوين الأسرة . وما الأسرة الا الخلية الحية للأمة . وحيثما رأيت شعبا صالحا ألفيت فيه الأم كالدعامة للبناء الشامخ . وليت المصلحين يقفون على إصلاح الأمومة جهودهم . إذن لاستراحوا من أشتات المشكلات و إذن لحلت كل مشكلة وتلاشت دون كد أو عناء .

ولطالما نادينا بأن تأخذ الفتاة من الثقافة الحظ الأوفى وتصل من العلم الى أبعد مدى فإن ذلك يهيئها تهيئة صالحة لتكون "ما صالحة" . فالأم تربى الجيل فيجب أن تتوافر لها صفات المربى القدير تتسع آفاق معارفها حتى تستطيع النهوض بالرسالة الموكولة لها ، وتتفتح أعينها على حقائق الحياة كلها حتى تمضى فى طريقها على هدى ، وإن الذين يسألوننا : لم نعلم الفتاة ؟ هم قوم يعيشون فى الظلمات ويتأذون بالنور فيعلموا أننا نعلمها لتربى الجيل ولتستطيع أن تنقذ الطفولة من عهود الظلام ، ونحن لا نبغى من وراء ذلك الى أن تؤدى المرأة عمل الرجل ، فان هذا يأتى وراء رسالتها . وخطل أن يقاس عمل صناعى أو تجارى أو مهنى بعمل فتاة تقوم على إعداد النشء وتربية الجيل وانشاء المستقبل . فيجب أن نعنى بالتربية الثقافية للأمم ، وأن نبلغ بها فى هذا المضمار أبعد الشوط . والمتسائلون " لم ننتقل بالفتاة الى عليا مراحل التعليم" ينسون أو يتناسون أننا نعد فتاتنا لتصبح أما وزوجة ولتكون لمنصب لأمومة كفئ . فكيف تساير الشباب من أبنائها اذا لم تثقف ثقافة أرفع من ثقافة الشباب ؟

على أنى أعيب على القائمين على شؤون التعليم تسويتهم فى المراحل العالية بين الفتاة والفتى وجمعهم التعليم دفعة واحدة فى هذه المراحل للجنسين معا ، ولو انصفوا لجعلوا التعليم العالى للفتاة صالحا لإعدادها إعداد يؤهلها لمنصبها الطبيعى الخطير . وإنى لأذكر حديثا جرى بينى وبين أحد كبار السياسيين من الأجانب فى شؤون التعليم ، فتطرقنا فى الحديث فى موضوع اجتماع الجنسين أو افتراقهما فى مرحلة التعليم العليا . فسألته : هل يجتمعان عندكم ؟

فأجاب : إن اتجاها الحديث يرمى للفصل بينهما فى هذه المرحلة . فقلت : هل تحسون من اجتماعهما شيئا ؟ فقال : نحن نريد التفريق بينهما ، لأنه يجب أن يكون لكل من الجنسين إعداد خاص فى مرحلة التعليم الجامعى وبون شاسع بين فتى يعد ليضطلع بالأعباء العامة ، وليسعى فى سبيل الرزق وفتاة تعد للنهوض بأعباء الأسرة نهوضا يحقق رسالتها كاملة فى بناء الجيل وتوفير سعادته .

فإذا أردنا أن تعد الأم طفلها إعدادا حسنا وجب علينا أن نعد الأم أولا ، فنهيئ لها بيئة كريمة ، نحوطها بسياج من الطهر والعزة ، ونمدها بنوع من الثقافة العالية يتفق مع خطر رسالتها فى الحياة . فبقدر ما نبذل من جهد فى إعداد الأم يكون الأثر الحسن فى إعدادها هى للطفل من بعد . وعلى هذا يجب أن يكون برنامج الإعداد للأمهات وافيا بمختلف النواحى . وافيا بالناحية الصحية على وجه خاص ، حتى يتسنى تجنيب الأطفال ويلات المرض والضعف والتشويه ، وافيا بالناحية الخلقية حتى لا يرث الطفل عن بيئته الشذوذ والانحلال الخلقى ، وافيا بالناحية الثقافية حتى تستطيع توجيه الطفل توجيها صالحا فى تربية ملكاته العقلية وتنمية

قواه الذهنية من طريق التدرج فى غير افراط لا يتناسب مع سنه ولا تفريط يقصر به عن درجة التقدم المتفقة مع هذه السن. وبغير اكمال هذه النواحى فى إعداد الأم لا يحق لنا أن نرتقب نشئا يحقق ما نتطلع اليه من آمال وما نرجوه من أعمال جسام .

ولقد عرفت الأمم المتحضرة أثر الأمومة فى بناء الطفولة فخصتها بموفور الرعاية حتى لقد أفردت لها بعض الحكومات وزارة تقوم عليها وقصرت مهماتها على الطفولة والأمومة فى جميع المراحل . فكان من عمل هذه الوزارة أن ترعى الأسر فى شؤون الأمومة والطفولة فتبعث بأطباء واجتماعيين يوالون السؤال والاستخبار والإرشاد، ولقد ذكر لى بعض المطلعين أن فى بعض الأمم أطباء إخصائيين وحدات اجتماعيين يتردّدون على الأسر و يقدمون الى الحكومة تقارير عما يصيب الأطفال والأمهات من مرض أو اضطراب أو نقص فى التغذية . ومما يصنعه هؤلاء أن يزودوا أرباب الأسر التى يزورونها ببطاقات بحاجات الأم أو الطفل . فتتقاضى الأم من الحكومة ما فى البطاقة من دواء أو غذاء أو كساء عندما تعوزها الوسائل للحصول عليها . وبمثل هذه النظم تبنى الشعوب الرشيدة مستقبلها على أساس متين وتقيم نهضتها على دعائم ثابتة من الجسم السليم والخلق القويم .

ومن مظاهر العناية بالطفولة فى بعض الأمم الناهضة ما يحظرونه من زواج الرجال والنساء الذين لا يستطيعون أن ينتجوا إنتاجا صالحا. ومن أجل ذلك عقموا من لم تثبت صلاحيته من الرجال والنساء خلاصا من النتاج الهزيل ، حتى لا تعد الأمة بألوف الألوف كثرة إحصاء . فاذا حان وقت الاضطلاع بالمهمات لم تستطع هذه الكثرة شيئا ولم تجد فتيلا . . . وكيف ننتظر نباتا صالحا من تربة غير صالحة ؟ وكيف ينشأ الطفل على ما نبغى له من صفات القوة وحسن الاستعداد اذا كانت الأم فاقدة لهذه الصفات على حين أنه بصحتها أو مرضها يتأثر وفى جوها يدرج وبحركاتها وسكناتها يقلد . ولما كان أثر الأم فى الطفل لا يقصر على ما بعد الولادة و إنما يبدأ الأثر منذ الفترة التى يتكون فيها الجنين وجب أن تكون الأم خلال هذه الفترة موضع رعاية صحية دقيقة تضمن صلاح الانتاج . وإن فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس " لإشعارا بوجوب رعاية النسل وتوجيها الى ضرورة العناية بسمات الجيل وأغراس المستقبل .

وحين يشهد الطفل ضوء الوجود تقع على عاتق الأم مهمة لها خطرها ، فهى المسئولة عن تنشئته فى سلامة وضعه الطبيعى الذى صاغه الله . فيجب على الأم المرضع أن تقدر مهمتها وأن تفهم وظيفتها. فكثيرا ما تجىء المصائب من الجهل وسوء التقدير، يجب عليها أن ترضع طفلها على أساس صحى دقيق ، تعين فيه فترات الإرضاع ومواعيدها وتقف على صورة من تطور حالة الطفل الصحية لا تباشر فى شأنه عملا إلا قدرت عواقبه واحتاطت

له ؛ و إذا عرفنا أن خمسين فى المائة من الأطفال تلدهم أمهاتهم المصريات لتودعهم القبور زهرات لم تتفتح بعد ، سهل علينا أن نرجع السبب إلى قوة أثر الأمومة الجاهلة فى الإضرار بالطفولة الباكرة فيرتفاع نسبة الجهل فى الأمهات ترتفع فى الأطفال نسبة الوفيات .

والطفل حين ينضج إدراكه و ينظر حوالبه يتخذ أمه قدوة فى النظافة والذوق وفى الصدق أو الكذب وفى الصراحة أو النفاق ، فهى تؤثر فيه تأثيرا مباشرا يلازمه طول حياته ، فعلى الأم أن تكون مثلا صالحا فيما تأخذ وما تدع ، فإن لم يكن الصلاح فى طبيعتها كان عليها أن تتكلف ذلك تكلفا وأن تلزم نفسها به حتى يقتدى بها طفلها فلا تطالبه بأمر تأباه ولا تنهاه عن شىء تفعله . و إنى لأذكر أنه منذ أيام ضمنى مجلس رجال ونساء بينهم طفل فى نحو الرابعة فلما انتهينا من الغذاء أديرت أقداح القهوة فطلب الصبى قدحا منها فانتهرته أمه وقالت له هذا عيب ، فأجابها و إذا كان عيبا فلماذا تفعلينه ؟ ولن يستوعب الطفل بهذه العبارة أن القهوة لا تليق بالصغار أو تضرهم فيجب ألا يصدر من الأم قول أو عمل تأباه على طفلها لأن ذلك ينطبع فى نفسه ولا يملك الخلاص منه ؛ وكثيرا ما نخطئ نحن أشد الخطأ حين يسأل عنا سائل فنرسل الطفل ليخبر بأننا غير موجودين ، فهذا درس فى النفاق والجبن والكذب يتلقاه الطفل فى بيئته و يلازمه أثناء حياته ؛ ثم تأتى مضاعفاته كلما امتد به الأجل وأحاطت به مشكلات الحياة ومطالبها .

ومما يجمل بالأم الحرص عليه أن تهيئ لطفلها جوا نقيا طاهرا يؤثر فى ذوقه وتفكيره ونظرته للحياة فإن الطفل فى نشأته يسعى لتعرف حقائق الأشياء و يحاول تعليل ظواهر الحياة . فإذا لم تكن الأم على حظ من لباقة الحديث واستقامة التفكير وسعة الحيلة لتشبع رغبة الطفل زلزلت قواعد تفكيره وأخمدت شعلة ذكائه وأماتت فيه غرائز طيبة كان يجدر بها أن تنميها لتسدد خطاه فى مراحل حياته جميعها ؛ إذ يشب قوى ملاحظة محب للاستطلاع سليم التفكير قوى الخلق .

فإذا تقدمت السن بالطفل و بلغ مرحلة الحضانة كما يسميها الشرعيون أو التربية كما يسميها المربون أو التوجيه كما يدعوها الاجتماعيون — وجب على الأم أن تلقنه دروس الحياة دون أن ترهقه بنظريات التعليم ، وأن تعنى بصحته وخلقه وعقله لا تخص بعنايتها العقل وحده ولا الجسم وحده . فإنها إذا ربته تربية خلقية محضة دون أن تلتفت الى التربية الجثمانية شب ضعيفا تمتلكه نية صالحة ولكنه لا يستطيع لضعفه ووهنه أن يحقق المثل الأعلى ، و إذا ربته تربية جثمانية خالصة لم يتجه بقوته الى تحقيق مثل انسانية رفيعة . فليتحقق أثر الأم تحققا صحيحا ولتوازن بين الجسم السليم والخلق القويم فى تكوين الطفل فلا تثقل كفة على حساب كفة أخرى .

و إن رسالة الأم لتتعاظم إذ بلغ الطفل دور الصبا ، إذ يجب عليها أن تغرس فيه صفات الرجولة الحقة ، من إقدام وتعويل على النفس ، ثم صراحة وجهر بالحق إلى غير ذلك من الصفات التي تعينه على أن يكون رجلا صالحا . وأثر الأم في ذلك هو الأثر الأول و الأخير . لأن الأب على الغالب مشغول بمطالب الحياة قبل الاجتماع بطفله وما يصلحه الأب تفسده الأم الجهول ، لأنها أكثر اتصالا بالطفل وأبعد نفوذا وأقوى أثرا في حياته وتكوينه .

ومما لا يحتمل الجدل أن الأم هي المربي الأول للروح القومية و الدينية في الطفل ولذلك وجب في إعداد الأمهات أن نكونهن تكوينا قوميا وننشئهن تنشئة دينية. و إن شئتم دليلا على خطر التغاضي عن هذا التكوين فانظروا إلى مجتمعنا المصري يتبين لكم أن الغالبية من أفراده لا يعرفون من الدين الاسلامي غير تأدية مظاهر الفرائض إذا أدتها بعيدة عن تشرب روح الاسلام ومبادئه وجوهره ، فالتقوى عندهم " قول تلق وحركات تؤدى والصوم إمساك عن الطعام " ظواهر خشية وتق كذلك " وأساس ذلك كله سوء تربية الأم ؛ فلو كانت تفهم الدين جوهرا وروحا لتلقاه أطفالها روحا وجوهرا ؛ والدين خشية الله وهو الوازع الأول الذي يجعلنا نأبى الشر ونتجنبه في كل مكان ، في السر والعلانية . والتربية الدينية هي التي تقر في نفوس الإيمان الوثيق بغلبة الحق وتقوى الله في القول والعمل فلا إسراف فيما أباحه الله ولا اقتراف لما نهى الله عنه . و إذا كانت النظم الوضعية تكفل تنظيم بعض العلاقات المشتركة بيننا و بين غيرنا من الناس فإن الحدود الدينية تنفذ إلى قلوبنا فتطهرها من الرجس وتقوى نواحي حياتنا الروحية وتحسم في طوايانا عوامل الشر . فأما التربية القومية فهي التي توحي إلينا بذلك المثل العالي في الحياة الجمعية ، وهي أن نضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار ؛ وهي التي تجعلنا ننظر إلى أهل البلد الواحد كأنهم اخوان من نبعة واحدة ، وهي التي تشعر كلا منا بأن في ماله حقا للفقير والمحروم وفي قوته المادي والفكري نصيبا للجائع والسائل .

وغاية القول أن الأم هي البطل في رواية الحياة . بل إن أثرها ليمتد إلى الدار الآخرة . فإن ربيت وأصلحت كفلت لمن ربتهم وأصلحتهم حياة قويمة في العاجلة وعاقبة محمودة في الآجلة ؛ و إن أساءت كانت الدنيا كالآخرة جحيما . فلزام علينا أن نعد الأم لتكون جديرة بهذه المكانة ، صالحة لأن تكفل لنشء حياة مثمرة وآخرة سعيدة . و إني لأرجو أن تبعث صرخة مدوية يتبعها عمل حاسم فنشهد في القريب وزارات تقوم من أجل الأمومة والطفولة ووزارات تسقط لأنها أهملت الأمومة والطفولة وأجزاء تحيا أو تفنى في سبيل الأمومة ورعاية الطفولة وتوفير ما يجب لسلامتها على وجه يكفل صلاح المجتمع و بناء المستقبل و يقينا شرور الحياة و يقوى في الشعب روح الكفاح في سبيل العزة والكرامة . و لله ولي التوفيق .

محمد العشماوي